

رِسَالَةٌ إِلَى الْمَلِكِ وَخَيْرِ الْأَوْلِيَاءِ



تَالِيَةً

أ. د. أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَشْمَانَ الْقَاضِي

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة - جامعة القصيم (سابقاً)

ح) أحمد بن عبدالرحمن بن عثمان القاضي، ١٤٤٦هـ

القاضي، أحمد بن عبدالرحمن

رسالة إلى الزوجة الأولى / أحمد عبدالرحمن القاضي - ط. ٢ - عنيزة، ١٤٤٦هـ.

٢٠ ص، ١٧×١٢سم

رقم الإيداع: ١٤٤٦/٤٧٤٢

ردمك: ٢-٣٩٧٧-٠٥-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م

خُفِرُوا الطَّبْعَ وَحَفِظُوا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اتصلتُ بي مفاجئةٌ، مُلتاعةٌ، تتسابق الكلمات على شفيتها، ممزوجةٌ ببكاءٍ مريرٍ، وشهقاتٍ متلاحقةٍ، فرثيت لحالها، وظننت أنها فقدت أحد ذويها، أو عزيزاً عليها، وطلبتُ منها أن تُعيد الاتصال إذا سكنت، وهدأت؛ إذ لا يمكن التفاهم في هذا الجو المشحون، والانفعال المحموم، لكنها أصرت، ولم تُطق التأجيل، ووعدت أن تتمالك نفسها، وتضبط عباراتها، فانطلقت تشكو، قائلةً:

(نثرت له بطني، وبذلت له مالي، وصبرت على سوء عشرته، وبذاءة لسانه، وفضاظة معاملته. خدمت والديه، وأكرمت أهله، وربيت أولاده أحسن تربية، حين كان يمضي الأيام في البراري، والليالي في الاستراحات. ولم أُلَّ جهداً في إرضائه، حتى كنت دوماً من يبادر بالاعتذار والاسترضاء، ولو كنت المجني عليه، وبعد هذا كله

يطعنني طعنةً نجلاء، ويفاجئني بالزواج من أخرى!
ويهدر جميل صبري، وحسن تبعلي، وطول عشتري؛ لشهوة
عارضة، ومتعة عابرة، يتنعم فيها وأشقى، ويتباهى بها
أمام الناس وأتخفى. أليست هذه خيانة، وهدراً للحقوق،
وجناية؟ لقد احتملت جميع سوءاته، وسرته، وحفظته في
حضرته، وغيبته. أمّا هذه الطامة، فلا، ولا كرامة! فليس
له مني إلا الفراق، ولا أبتغي منه إلا الطلاق، وإلى الله
المشتكى، وهو حسبي ونعم الوكيل).

تألمت لألمها، وتأثرت لمعاناتها، وتصورت مسالك
التفكير التي تنحسر في مضائقها، فلا يزيد لها إدمان
التفكير إلا مرارة، ولا إعادة النظر إلا ارتداد آفاق مُظلمة،
ووساوس سوداوية، ومشاعر سلبية، وأدركت أن هذه
الزوجة المكلومة تحتاج إلى بلسم يداوي جراحها، وإعادة

تأهيل في طريقة تفكيرها، تضعها على المدارج الصحيحة؛
لتوصلها إلى النتائج السليمة، وتجنبها التطويح في مهاوي
الظنون الفاسدة، والتصرفات الحمقاء.

توجهت نحوها بالحديث قائلاً:

أي أختي: إنني أدرك جيداً مرارة (الجوار)، وضرارة
(الضرة) على المرأة، في الأحوال السوية، فكيف إذا
صاحب ذلك سبق صبرٍ، وتضحية؟ لا ريب أن الوقع
أشد، ولكن لا تجمعني - يارعاك الله - على نفسك المكدودة
مصيبتين؛ مصيبة الضرة، ومصيبة العيشة المرّة.

أصغي إليّ بقلب مفتوح، وعقل مستنير،
ولا تقاطعيني، فتفسدي عليّ بيان الحجة، وعليك سلوك
المحجة، وتنبهي للأمر التالية، التي غابت عنك في حُمياً
الصدمة:

أولاً: إنَّ (التعدد) شريعة إلهية، وسنة نبوية؛ لا يجل لمؤمن ولا مؤمنة أن يقابلها بالرد والتنقص، ولا أن يصفها بالظلم والحييف.

كيف! وقد قال الحكيم العليم: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا فَإِنَّ خِفْتُمْ آلا نَعْدِلُوا﴾ [النساء: ٣]، وهذا نبهه **صلى الله عليه وسلم** يموت عن تسع نسوة، ويقول: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ، وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١)، ويقول مخاطباً **صلى الله عليه وسلم** أمته: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ، الْوُلُودَ؛ فَإِنِّي مُكَاتِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ»^(٢).

(١) أخرجه أحمد: رقم (١٤٠٣٧)، وقال محققو المسند: «إسناده حسن، رجاله ثقات، رجال الشيخين، غير سلام أبي المنذر، فهو صدوق حسن الحديث»، وأخرجه النسائي: رقم (٣٩٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٥٩٩/٢).

(٢) أخرجه أبو داود: رقم (٢٠٥٠)، والنسائي: رقم (٣٢٢٧)، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٦/٢٩١): «إسناده حسن صحيح».

وحاشاك - يا أمة الجبار - أن تستنكفي عن شريعة الله، أو تردّي شيئاً من دين الله، أو تطعني في حكمته في شرعه وقدره.

كيف! وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، قال الإمام أحمد **رَحْمَةُ اللَّهِ:** (وما الفتنة؟ الشرك؛ لعله إذا ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ، فيزيغ قلبه، فيهلكه) (١).

ثانياً: اعلمي - وفقك الله - أن زواجه بسواك لا يعد منقصة في حقك، ولا سبباً لك؛ لا شرعاً، ولا عرفاً؛

(١) الإبانة الكبرى لابن بطنة: (١/ ٢٦٠).

فلم يزل أهل الإسلام يتزوجون الثنتين، والثلاث، والأربع، دون أن يكون في ذلك غضاضة على أيٍّ منهنّ.

وحسبك بأمهات المؤمنين، وخير نساء العالمين، أفلا يسعك ما وسعهن؟! وإياك، ثم إياك، من النائحة الشكلى، والنائحة المستأجرة، اللواتي يُثرن أشجانك، وينكأن جراحك، بقولهن: ما الذي ينقصك؟ كيف يتزوج على مثلك؟ لا عذر له في فعلته، ونحو هذه الكلمات التحريضية.

سبحان الله! وهل الزواج بثانية علامة نقصٍ في الأولى؟ فما بال أمهات المؤمنين، وزوجات الصالحين؟ وهل يحتاج الزوج إلى تبرير، ومعاذير، لينكح ما أحل الله له من النساء؛ مثنى، وثلاث، ورُباع؟ ألم يقع ذلك من سيد المرسلين، وأئمة العلم والدين؟ بلى، والله.

وتذكري - وفقك الله - أنك قطفتم زهرة عمره، ومقبل شبابه، وتركت (الفضلة) لغيرك، فقابلي بهذا الشعور الإيجابي حملة المشاعر السلبية، وردوها على أعقابها.

ثالثاً: ينبغي أن تحمدي الله تعالى أن هدى زوجك إلى طريق الحلال، وجنبه مزلق الهوى والضلال.

أيسرك أن يقضي وطره فيما حرم الله عليه من الفواحش، ويدع ما أحل الله له من الطيبات، مراعاةً لجانبك، ودفعاً لغيرتك؟ أعيذك بالله أن تكوني عوناً للشيطان على بعلك؛ فتألمي هذه النعمة.

رابعاً: هلا نظرت - يا رعاك الله - إلى الجانب المشرق من الأمر، وصرفت بصرك عن الجانب المظلم!

ستقولين: كيف؟ وأي إشراقٍ في مشهدٍ تستلب فيه الزوجة نصف زوجها، وتشاركها فيه ضربةً طارئة، بعد

أن كانت مُتَّفِرِّدة به؟ والجواب: إن المشهد يمكن أن يُقرأ بطريقة أخرى: لقد كنتِ، برمتكِ، ملكِ زوجكِ، تنصبين نفسك لخدمته، ولا تملكين الحيدة عن نظام يومه وليلته، وها قد وُهبت نصف عمركِ، وبِتَّ حرةً في تصريف شطر دهركِ؛ فيالها من فسحة، وسعة، تفرغين فيها لاغتنام ما فاتكِ من فرص الخير، وتطرقين ما لم يُتَّح لكِ، فيما مضى من أبواب الفضائل:

- تفرغي لبر والديك، وصلة رحمك؛ فقد كنت في شغل عن ذلك.
- أقبلي على تلاوة كتاب الله، وحفظه، وتدبره؛ فقد أضعتِ عمركِ في التسويف.
- اشهدي مجالس الذكر، وحلق العلم، التي تحفها الملائكة؛ فقد كنتِ محرومةً منها.

- استكثري من الأعمال الصالحة؛ القاصرة، والمتعدية؛
من قيام الليل، وصيام النهار، وذِكر الله، والصدقة،
والسعي على الأرملة، والمسكين، واليتيم.

أرأيتِ! لقد كنتِ في غفلةٍ من هذا، فانكشف الغطاء،
وقد كنتِ في شغلٍ، فألقى الله عنكِ العناء؛ فاغتنمي
الفرصة.

خامساً: اعلمي أن من أعظم سعادة العبد الرضا
بالقضاء؛ فيه تستحيل المحنة منحة، والنقمة نعمة؛ قال
تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ
بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۗ ﴾ [التغابن: ١١]؛ قال علقمة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: (هي
المصيبة تُصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم لها
ويرضى)^(١)؛ فتلمسي حكمة الله **عَزَّجَلَّ** فيما قضى وقدر،

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضا عن الله بقضائه: رقم (٧).

وتذكري قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ، صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (١).

فإن كنتِ وجدتِ هذا الخير فاحمدي الله، وإلا ففتشي عن إيمانك.

سادساً: ماذا عسالكِ تصنعين، إن لم تسلكي سبيل الرضا والتسليم؟ ليس سوى ذلك إلا الانفعالات الرعناء، والتصرفات الحمقاء، التي لا تورثك إلا الندامة والخسران.

فلعلك تقولين: أهجر بيته، وأرمي عليه عياله. أنسيتِ أنه بيتك، وأنهم عيالك؟! كيف تهدمين بيت

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٩٩٩).

العمر، وتشرين عقد النظم؟ وما البديل إذا وقع الطلاق،
أو حصل فراق؟ إنك في أحسن الأحوال:

- ستأوين إلى بيت أبوين، شيخين، كبيرين، يتجرعان
بقية حياتهما غصصًا، كلما رأياك مطلقةً، لا بيت لك،
ولا زوج.

- أو تلصقين نفسك إلى جنب أخ مشغول بدياه،
وزوجته، وأولاده؛ كلما سمعت كلمة تبرم ضاقت عليك
الدنيا بما رحبت.

- أو تنكحين رجلاً مسنًا، أو به علة، أو مُعدِّدًا؛
فتقعين فيما فررت منه أو أشد.

أكرمي نفسك، يا أختي، ولا تتبعي الهوى، ولا تصغي
إلى البواكي الحمقاوات، اللواتي يحملنك على تقحم
المسالك الوعرة، واتخاذ القرارات الطائشة، ثم لا يلبس

أن ينفضن عنك؛ لتبقي أسيرة الوحدة والندم، ومن حكيم مقالات العامة، وخلاصة تجاربهم: (ظِل رَجُلٍ، ولا ظِل حَائِطٍ).

سابعًا: كيف تتعاملين مع زوجك، بعد ذلك؟ هناك

ثلاث ممارسات واقعية؛ فاخترتي لنفسك إحداها:

الأولى: أن تحيلي بيتك ساحة خصام، وقاعة تحقيق؛

تحاسبينه على كل صغيرة وكبيرة، وتعقدي المقارنات المبنية على الظنون والأوهام، بينك وبين الأخرى، والنتيجة: أن ينفر من بيتك، ويستثقل القدوم إليه، لما يتوقع من الملاسنة، والمشاحنات؛ فيكون للأخرى غنمه، ولك غرمه!

الثانية: أن تُظلي بيتك بسحابة كآبة، وتعاملي

زوجك بسلبية وانقباض، فتختفي الابتسامة، والدعابة،

والمعاشرة، والفرح؛ إن بقصدٍ منك، أو غير قصد، وعلى كلا الحالين، فإن زوجك لن يعدَّ مكثه عندك مناسبةً سعيدة، بل سيتحرى وقت انقضاء (النوبة)، كما يتحرى الموظف الملول انقضاء الدوام.

الثالثة: أن تكوني سويةً، طبيعية، وتتصرفي بذكاءٍ وكياسة، وتعاملي زوجك بلطفٍ، وحُسنٍ عشرة، وكأن شيئاً لم يكن، وتعدي غيابك عنك ليلةً، إثر ليلة، كما لو كان مسافراً، أو موظفاً، تقتضي طبيعة عمله دواماً مسائياً، وتنسي أن لك ضرة، ولا تستدعي ذكرها من قريب، أو بعيد، ولا تسمحِي له أن يذكرها عندك بحسنٍ ولا قبيح، وتمثلي قول الشاعر^(١):

(١) البيتان ينسبان لأبي تمام، حبيب بن أوس الطائي، انظر: ديوان أبي تمام: (ص: ٧٤٥)، والبيان والتبيين: (٣/ ٢٠٧).

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحبُّ إلا للحبيبِ الأوَّلِ
كم منزلٍ في الأرض يألُفه الفتى وحينئذُ أبداً لأوَّلِ منزلِ

والنتيجة: أن زوجك سيكبر فيك هذا الموقف،
ويحفظ لك هذا الأداء الجميل، ويقابلك بمثله من البر،
واللطف، وحسن العشرة.

ثامناً: كيف تتعاملين مع المجتمع؟ هناك -أيضاً-

ثلاث ممارسات واقعية؛ فاختاري لنفسك إحداها:
الأولى: الانكفاء، والانزواء، وتجنب المناسبات
الاجتماعية، والخوف من المواجهة، نتيجةً لشعورك
بالنقص الوهمي، والعيب الاجتماعي.

الثانية: هتك الأستار، وإفشاء الأسرار، والوقوعة في
الزوج، وذمّه، عند الآخرين، كنوعٍ من التنفيس الخاطيء،
والتشفي الباطل.

الثالثة: المواجهة الشُّجاعة، والقبول الواقعي، والحضور الاجتماعي، وقطع الطريق على المغرضين، بالثناء الصادق على الزوج، وأنّ ذلك حقٌّ شرعي له؛ لا يلام عليه، ولا يقدر بزوجه.

تاسعًا: كيف تتعاملين مع ضرتك؟ هناك -كذلك-

ثلاث ممارسات واقعية؛ فاخترتي لنفسك إحداها:
الأولى: أن تعديها ظالمًا، غاصبةً؛ فتناصبيها العدا، وتحشدي ضدها الأعداء، وتتسقطي زلاتها، وتتبعي عوراتها، وتؤلبي زوجك عليها، وتطالبيه بطلاقها، فتبوئي بإثمك، وإثمها.

الثانية: أن تهجريها، وتهملها، وتأمري أولادك بقطيعتها، وعدم طاعة أبيهم في خدمتها، فلا يصل إليها منك برٌّ، ولا أذى.

الثالثة: أن تعتبرها أختاً لك في الزوجية، كما هي أختُ لك في الإسلام، فكما هي شريكتك في القسم، والمبيت، والنفقة، والميراث، فهي شريكتك في خدمة الزوج، والقيام بشأنه. أبناءك منه محارم لها إلى يوم القيامة، وأبناءؤها منه محارم لك إلى يوم القيامة. ففيم الخصومة؟ فلا بُدَّ من قدرٍ معتدل من التواصل، يزداد تدريجياً مع توالي الأيام، وتقدم السن، وتقلبات الأحوال.

عاشراً: كيف تتعاملين مع أولادك حيال هذا الحدث؟

هناك ثلاث ممارسات واقعية؛ فاختاري لنفسك إحداها:

الأولى: أن تؤلبيهم على أبيهم، وعلى زوجة أبيهم، وتوغري صدورهم، وتزرعي فيها بذور الكراهية، وتأمرهم بقطيعة ما أمر الله به أن يُوصَلَ، وتحملهم على العقوق والمضارة؛ فتبوءي بإثمك وإثمهم.

الثانية: أن تشعريهم بالضيق، والنكد، والكآبة، لما يروا من تدهور حالك، وضيق صدرك، وتوتر علاقتك بأبيهم، ولا حيلة لهم.

الثالثة: أن تتجملي بالصبر، وتبدي لهم الرضا، وتسلي ما في صدورهم من سخيمة، وعتب على أبيهم، وتحرصي على تماسك البيت، وتأمريهم بالعرف، ورعاية الحرمات، والإحسان إلى زوجة أبيهم، ومحبة إخوانهم، وأخواتهم منها.

هذه عشر وصايا، وتنبهات، وعلامات على مفارق الطرق، فتبتي من خطوك، وموطئ قدمك، حتى لا تفتني، فتفتني، وتذكري قول الشاعر^(١):

وإذا تشاجر في فؤادك مرةً أمران فاعمد للأعف الأجل
وخير من ذلك، قول الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) البيت ينسب لعبد قيس بن خفاف البرهمي، انظر: الأصمعيات: (ص: ٢٣٠)، والفضليات: (ص: ٣٨٥).

اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا
عَظِيمًا ﴿[الأحزاب: ٧٠، ٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ
يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ
شَيْءٍ قَدْرًا ﴿[الطلاق: ٢، ٣].

وفقك الله، ورعاك، وحفظك، ووقاك. والحمد لله
رب العالمين.

كتبه

أ.د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي

عنيزة. في: ٢٣ رجب ١٤٣٠ هـ